الوظائف الاجتماعية للمأثورات الشفهية المرتبطة بالمؤسس الأول، دراسة ميدانية على متون من ولاية تيارت

أ. **بودواية مختار***
أ.د. جرادي العربي **

الملخص:

المقال محاولة لتحليل نماذج من متون المناقب التي تتداول في الوسط المحلي و تتحدث عن كرامات الولي و عن الجماعات الاجتماعية، وتعطي معنى للمكان/الزمن وللفضاء الاجتماعي، هي متون قديمة لها وظائف وأدوار محددة، لكل جماعة مقولاتها الرمزية التي تعبر عنها عن هويتها و عن أصلها ومرتبتها؛ هذه النصوص تبرر التراتبية الاجتماعية وتعيدنا مرة أخرى إلى مسائل قد طرحها الأبحاث الأنثروبولوجية؛ مثل القبيلة السلطة نمط التدين والفاعلين الاجتماعيين...الخ.

الكلمات المفتاحية: أساطير التأسيس، الشفهيات، الوظائف الاجتماعية، المحلي، الصلحاء المؤسسون.

Résumé :

Cet article est un essai d'analyse de certains corpus du milieu local parlant de miracles de Saints patrons et de groupes sociales, des corpus qui donnent un sens au lieu, au temps et à l'espace sociétal.

Ce sont des corpus antiques qui ont des fonctions et des rôles bien déterminés. Chaque communauté a ses propres paroles symboliques exprimant son identité, son origine et sa strate. Ces textes justifie la stratification sociale, et nous faire revenir encore une fois à des questions soulevées déjà par des recherches anthropologiques tel que: la Tribu, l'autorité, l'aspect religieux, les acteurs sociaux etc…

Mots clés :

Mythes fondateurs, oralité, fonction sociale, local, saints fondateurs.

تنتمي هذه الدراسة إلى البحوث التي تستهدف وصف وتحليل الممارسات اللغوية/الرمزية ووظيفتها من خلال تناول مقولات لغوية ثابتة نسبيا متداولة على نطاق واسع بالوسط المحلي، المتون الشفهية هي المادة الخام لهذا البحث نحاول تفسيرها وتفسير الاستخدام الاجتماعي للغة فهي ليست مجرد ممارسة عفوية بل تُعبر عن رؤية للعالم لم تتأثر –نسبيا- بالدينامكية التي عرفها المجتمع؛ تشير إلى عقلانية ومنطق يختزل في اللغة الشفهية.

تهتم هذه الدراسة بالممارسات اللغوية التي تحيل ضمنيا للفاعل التاريخي وللمرجعية الانقسامية للجماعات في الوسط المحلي، هي رجوع لوظيفة المقولات الشفهية التي تؤسس للعلاقات والرابط الاجتماعي؛ نحن أمام استخدام اجتماعي للغة أي معطيات موضوعية تتميز بالتكرار، الديمومة وطابع التكثيف تعمل كمعايير

* أستاذ مساعد جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر. sociomokhtar@yahoo.fr
** أستاذ التعليم العالي، جامعة عبد الحميد ابن باديس، مستغانم، الجزائر.

للإسناد، يرى متداولوها أنها عقلانية، فهي تساعد الأفراد على بناء التوقعات والتقديرات؛ أهم ما يميزها أنها تبين توجهات الفعل، ذات محتوى معرفي يمكن الوصول إلى المحددات السابقة من خلال حصر وجمع التعبيرات اللغوية، فالملاحظ أنه يتم ربطها بالممارسة/الطقوس لتتحول إلى محدد أساسي للهوية الاجتماعية (المكانة مثلا) هناك نوع من الاقتران بين ترديد المتون ودلالتها في الوسط المحلي نسعى إلى تفكيكها للوصول إلى معانيها ووظيفتها؛ مع افتراض أن اللغة في الوسط المحلي تؤدي عدة وظائف وتعبر عن المميزات الشكلية والبنيوية للنظام الاجتماعي، توفر مبادئ تصنيفية، تعبر عن اللحظات –الأولية- لانبثاق المؤسسات الاجتماعية، على علاقة بالسلوك والفعل الاجتماعي وبجل الممارسات، الطقوس والمعتقدات.

هذا النشاط ولاستخدام للمتون يثير العديد القضايا؛ يمكن القول بأن للمتون وجودها الفعلي انتهت إلينا اليوم على شكلها الحالي معبرة عن سلسلة من المتتاليات ترتبط مع وقائع وأحداث، يستجيب الأفراد لها وهي تعبر عن مقابل رمزي للعالم الاجتماعي. لا يمكن اعتبار الاستخدام مجرد استدعاء لنصوص ولا يمكن الاكتفاء بدراسة البناء الداخلي لها والقول عنه أنه "بناء مكتفي بذاته" بل يجب ربط المتون بالاجتماعي وبنمط الاستخدام/ممارسة والوظيفة كل هذا ضروري من أجل الفهم الجيد للقوالب اللغوية ووظيفتها والتساؤل عن سر استمراريتها اليوم، كيف يؤولها الأفراد؟ البحث محاولة لفهم أسس الاستخدام الاجتماعي للشفويات.

تعريف الشفويات:

هي عبارة عن سير لأبطال والوقائع والأحداث، تُكَون بنية رمزية معبرة ذات دلالات مفتوحة متفق عليها تعبر عن تأويلات الجماعات اللغوية لثنائية القدسي والدنيوي، أي أنها مادة -دسمة- للبحث لأنها تعبر عن التاريخ الاجتماعي بصيغ أسطورية لا تنقطع عن مرجعيتها الأصلية أي الواقع بكل أبعاده.

لم تفقد المتون الشفوية من قوتها على الرغم من وجود الكتابة[1] واستقامتها كمؤسسة لأنها أصلية بسيطة قابلة للنقل، هناك طلب اجتماعي حولها وهي ذات وظيفة نسعى للوصول إليها؛ الشفويات عبارة عن خطاب يحيل إلى واقع (تاريخي-اجتماعي-ثقافي) خارجي، لهذا يجب أن يتجاوز أي بحث المستوى اللغوي-النصي إلى مستوى الدلالة كما يفهمها المرددون للمتون، لكن يجب الأخذ بعين الاعتبار الإسقاطات التي يحاول كل من المنتج والمردد للمتن أن يصل إليها، فهي من جهة تحيل إلى واقع تاريخي انقضى و من جهة أخرى تشير إلى حضور رمزي للفاعل المؤسس "هنا الآن".

شفويات التأسيس والفاعل المحلي:

تشير المتون إلى لحظات التأسيس و إلى الفاعل-التاريخي- المحلي، بالرجوع إلى الاستخدام الاجتماعي للغة نلاحظ أن هناك دوما محاولة للانتصار للولي المحلي[2] بعض النصوص الشفهية تضعه أمام مواقف مركبة وتحول كل شيء (السرد/الحكي) إلى مسار ينتهي بفوزه وتغلبه على الآخر، الولي هو الفاعل بامتياز، يعتقد الأفراد اليوم أنه الحامي للفضاء المسكون؛ تضعه المتون في مواقف مواجهة مثلا: مواجهة الشخصيات غير السوية؛ مواجهة السلطة –المركزية- له قدرة على منح/نزع البركة وإتيان الخوارق[3]

---

[1] الكتابة لا تلغي وجود المتون الشفهية لأنها سند معرفي ثانوي معين للذاكرة، يمكن أن تكون موازي للمشافهة فقط والملاحظ في الميدان أن كل الفئات الاجتماعية تشترك/تشارك في هذا الفعل على اختلاف مستوياتها ومؤهلاتها.

[2] الولي المحلي هو الولي المؤسس للجماعة الاجتماعية؛ تصفه القصص غالبا بأنه تتلمذ على يد عالم وكان متفوقا على أقرانه من المريدين الذين ينافسونه للحصول على "السر"، كما أنها تجعله في مواجهة معهم ومع الأولياء في نفس المنطقة؛ ينتصر في الأخير أو تثبت عجزهم عن حل المشاكل وقدرته على خلق التوازن للاجتماعي.

[3] تحتفظ الذاكرة الشعبية بأسماء عديدة للأولياء وتتم إضافة نعوت وأوصاف لا تكاد تنفصل عنها مثل، الطيار، طويل الساق، بوعمامة، بودربالة، جلول كل هذا يساعد على استدعاء متون لها علاقة بالأوصاف والنعوت الخاصة بهم وهي إشارة إلى

...الخ. كل هذا لتحويل اللغة/الشفويات إلى حمولات رمزية ذات وظيفة، نسعى إلى تحليلها بالرجوع إلى المتون والواقع المعاش. أي أننا أمام سياقات، أحداث لا زالت قائمة تدعمها نصوص ثابتة راسخة متكررة على علاقة بأنماط لغوية أخرى (شعر، حكمة، قصة...الخ) وممارسات وطقوس.

جزء من الحكايات الشفوية بالوسط المحلي (مثلها مثل قصص التأسيس) تحاط بهالة من القداسة وترتبط بوظيفة محددة؛ نلاحظ ببساطة أن مساراتها تخضع للتوجيه لتخدم أو تقدم نموذجا نمطيا للجماعة التي ترددها؛ نلاحظ أن "الحكاية تَمنَحُ سلطة، كما أنها تسمح للراوي/الفاعل المنتج بالتموقع خلف الذين سبقوه (المؤسسون): إنه لمَ يخترع الحكاية؛ لقد اكتفي بما قاله الأولون...فالرواية الشفهية توهم الحضور أنها تردد المسموع فحسب، وكل هذه الطقوس؛[1] تسهم في منح الرسالة_ الحكاية فعالية وتبعدها عن كونها مجرد تسلية."[2] فالمرويات_ الحكايات عن زمن التأسيس زمن الانبثاق تشير إلى زمن ذهني أصلي وحقيقي يتم الاحتفاء به عن طريق اللغة في فضاء محدد وفق شروط، وهي تتميز بالديمومة والتكرار وخاصية التكثيف كما أنها لا تنفصل عن الأفعال الأسطورية، ذات بعد دلالي عميق يمكن للبحث الأنثروبولوجي أن يستوعبه.

كل ما بقي عن الشيخ المؤسس "اليوم" عبارة عن نتف من قصائد أمثال حكم وقصص ترسخت تدريجيا تعمل كرسائل موجهة للسلوك/الفعل ؛ تعبر عن سيرة ذاتية مرجعية ترتبط مع أحداث أصابت الجماعات الاجتماعية، حسب الباحثة فاني كولونا: "إن كل رسالة ليست أبدا إلا ترميزا للأصل، إن كل رسالة جديدة في المجتمع القروي تندرج في استمرارية شيء ما"[3] بل هي أحد أشكال الدعوة الدينية، على الرغم من أنها تذكارية ترسم مسار حياة فريد يكلل بعلامات الاصطفاء، وصف للتجربة والممارسة في زمن تاريخي لم ينقضي يتداخل مع "هنا الآن"، فهي تشير إلى "الدور الذي يلعبه بعض الأفراد المميزين في المجتمع باعتبارهم ينتمون إلى جيل محدد بموقعه بالنسبة لأجيال أخرى تسبقه وتليه..."[4] واستمرارية كنموذج ناجع.

يرتبط الحكي-الشفويات على العموم بالطقوس/الأداء وهو يمثل جانب الأفعال المساند للغة ذات الطابع الديني (يجمع بين الطقوسي والرمزي) ليعبر عن المجتمع المحلي، الذي لا زال يحتفظ بفكرة الزعيم الديني (الفاعل) ويعبر بدرجة معينة على سلطة المؤسسات (العتيقة) الموجودة التي تستمد شرعيتها من فكرة الانتماء السلالي البيولوجي-الاجتماعي، هذا التساند يعتبر كإستراتجية لمنع احتكار الحقل الاجتماعي والديني من طرف الآخر، مثلا: تعمل المتون على مركزة اللغة حول فاعل مؤسس (واحد) سليل النبي أي أنها تركز على مبدأ الشرف؛ فالمتون تعلن عن وجود فاعل مؤسس يقابله فاعلون ونماذج متوازية/متنافسة، مع الاعتراف بنموذج أصلي متعالي يجمع بين البركة والشرف وهو ما يعطي استمرارية للمتون التي ترتبط بامتداد تاريخي عمودي وتجليات اجتماعية أفقية -راهنة- يومية تتميز بالقوة.

يرتبط المتن الشفوي باللفظ والجانب الأيقوني-البصري والطقوسي-الشعائري وهو يؤسس لبناء معرفي قابل للتناول، وهو حامل لتاريخ دلالي يبين للأفراد كيفية إدراك العالم (المحسوس والملموس) من

قوتهم وبأسهم والمواقف التي تعرضوا لها، هذه الإستراتجية التي يتبعها الراوي لتثبيت سلطة الولى المحلي الذي يكون في الغالب الجد المؤسس للفرقة أو العرش والقبيلة ككل.

[1] يقصد بها طقوس الحكي مثلا: مكان وزمان الحكي وإمكانية المشاركة فيه؛ الصيغ التي يتم بها (كيفية الاستهلال وصيغة النهاية)؛ عدد الأشخاص الذين يمكن أن يؤهلوا لترديده

[2] فاطمة ديلمي صورة اليهودي في الحكاية القبائلية، القصص والتاريخ التمثيل الرمزي لحقب من التاريخ الاجتماعي الجزائري، من أعمال مركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الإنسان والتاريخ العدد الثاني، 2005، ص80

[3] فاني كولونا آيات الصمود، الثوابت و المتغيرات الدينية في الجزائر المعاصرة، ترجمة لطيف فرح، دار العالم الثالث، بدون سنة نشر، ص 169.

[4] فاني كولونا آيات الصمود، مرجع سابق، ص 180.

خلاله يسعى الأفراد لإعطاء معنى للاجتماعي، فمحاولة ترديد متن عن الولي المؤسس هي بداية للترميز لا يمكن فصلها عن محاولة تملك الفضاء و"المجال الحيوي" دلاليا/رمزيا فقصص التأسيس تتحدث عن ترويض الفضاء "أنسنته" وتحويله إلى فضاء قابل لأن يكون اجتماعيا، فالأفعال التي يقوم بها الولي المؤسس مثلا على الرغم من أنها عجائبية إلا أنها في نظر المرددين للقصص واقعية_معقولة، قدسية يتم من خلالها إنتاج رموز صور تمثلات لا زالت راسخة إلى اليوم على علاقة بمفاهيم "نحن" "هم" "الأنا" "الآخر" "الفضاء-المجال" (محاولة تأسيس للكينونة وللغيرية) الشفويات بدون شك ترتبط بفضاء؛ لا تعكس المتون لحظات تاريخية عابرة انقضت فالملاحظ أنها موجود متوارثة بكثرة على الرغم من التغيرات الكبرى (الاجتماعية، الاقتصادية، التاريخية، الثقافية) التي تختلف عن لحظات التأسيس الأولى.

إن حركة ونشاط وأفعال المؤسس الأول تمنح للأشياء قوة الوجود وقوة الاستمرارية، أي منح المقابل الرمزي لكل موجود، نحن أمام نظام رمزي له دلالة، له علاقة قوية بالجماعات الإنسانية وأنماط العيش، وأشكال التحالف ومعنى العلاقات ومفهوم الجماعاتي تعطي شرعية للمؤسسات وللفاعلين "الآن"؛ وللأجيال المتعاقبة" فبفضل هذا النظام الرمزي تعلن جماعة ما تشكيل موسوعتها المرجعية أو متخيلها الراديكالي"[1].

أشار نور الدين طوالبي؛ إلى وجود "أسبقية عائلية في القداسة...الشرفاء رصد إليهم الإسلام (التقليدي) قيمة كبيرة، إن المقدس في الإسلام انتقالي وراثي يُكَون ارستقراطية...فالشرفاء"أصفياء الله" أبعد عنهم القذارة وطهرهم كليا فهم كائنات خاصة والبعض يأتي أعمالا تعتبر معجزات؛ قد تأتي صفة الولي مقرونة بالشريف والحديث عن أحدهم يعنى الآخر يعتبر كلاهما من سلالة مشهورة.[2] لهم القدرة على التلفظ بالكلمة التي تضمن البركة والشفاء ولهم قصص تعبر عن انتمائهم ودورهم لحماية المقدس الديني، المتون الشفهية –داخل الجماعة اللغوية-تبرز المؤسس كنموذج للشرعية (المستمرة في الزمن و المكان) تزود الأفراد بمنظور محدد عن الواقع الاجتماعي الذي ينتمون إليه (أساس للهوية والأصل).

الملاحظ في الميدان أن هناك تركيز على قصص المناقب والأولياء إذ يتم ربطها (بطريقة واعية) بجماعات محددة هي محاولة لتأسيس الاختلاف من جهة الانتماء وخلق للتمايز مع الآخر، أي التعبير عن الذات الجمعية وعن ما يخالفها، تأسيس ثنائيات لها مقابل واقعي مثل "القبيلة، العرش، الفرقة" ثم "الأرض، المجال"، كل شيء يتساند ليخدم الاجتماعي "فكرة البركة تتجسد في حركة يد أو طعام أو مادة من المواد" تمنح من طرف الولي المؤسس لإعطاء معنى اجتماعي مثلا: -في القصة التالية- نلاحظ أن قيام فرد ينتمي إلى فرقة لا ترتبط مباشرة بالولي بيولوجيا بعلاج فرس يقابلها وصية-منح البركة- وفرض على أبناء وأحفاد الولي معاملة كل من ينتمي إلى "الفرقة Fraction" الأخرى على أنه أخ أو ابن عم؛ وكل من يخالف وصية الولي يتعرض للعقاب، لتتأسس روابط اجتماعية جديدة، وفي مثال آخر نلاحظ وصف سلوك أفراد قبيلة بأنها تتميز بقيم محددة إلى اليوم[3] الولي في جل المتون يصنع معنى؛ قد يتجاوز الأفراد إلى الأشياء، "مثلا: حرمة التعامل نقدا بين الجماعات؛ رمزية بعض الفضاءات؛ أو بقاء أثر لحوافر الخيل...أو

---

[1] نور الدين الزاهي: المقدس والمجتمع،افريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، 2006، ص 12.

[2] نور الدين طوالبي: الدين والطقوس والتغيرات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، منشورات عويدات بيروت، 1988. ص140-141.

[3] دعاء الولي لازال يتداول اليوم ويعتقد الأفراد في المجتمع المحلي أنه صادق ومعبر وقد جاء في العبارة التالية: "اللهم اعطيهم الخبزة الحرشة والنعجة البرشة والتلف قبل العرف" معاشهم على خبز الشعير وتربية الماعز ولا يمكن اقامة علاقات دائمة معهم لأنهم لا يعطونها قيمة، مثلها مثل قصة تحكي عن ولي صالح وضع فرقة كاملة داخل "قصبة" وبعد قرن من الزمن أخرجهم منها لكنهم لم يتغيروا ولم تتغير قيمهم الأخلاقية (يعتقد الأفراد أن هذه القصص صادقة إلى اليوم).

العبارات التي تلفظ بها الجد المؤسس والتي يؤمن بها أحفاده "كَافِي مَا يْصَدَّعْ ولَفْعْتِي مَا تَلْدَغْ"، [1] "أَحْنَا ضَامْنَا فِي الرْكُوبْ سِيدِي بَلْعَالِيَا"، [2] ويحتفظ الأفراد في الوسط المحلي بقصص عن قوة وقدرة الولي على إلحاق الضرر بالأفراد[3] أو رفعه في حالات محددة.

الملاحظ أيضا تدعيم للمقدس والمتون بشواهد مادية إذ أن لكل فضاء قصة ترتبط به (مثل القباب الشرفية للأولياء المؤسسين، المغارات، المعالم الجنائزية...الخ)، "تحاول المتون أن تجيب عن الأسئلة التالية من نحن كجماعة، مدى اتساع المجال الحيوي المسكون (الامتداد الجغرافي)، ما هي العلاقات الموجودة والممكنة، قصد تحديد الهوية. نحن أمام انتاجات فوقية على علاقة بالحقائق المادية والتاريخية التحتية (متجهة نحو الماضي قد يعود إلى قرون غابرة؛ معبرة عن الآني بحكم الاستخدام المتكرر/المكثف لها)، يمكن أن نفسرها أيضا أنها لغة/معاني الغاية منها التعبير عن العلاقات ومحاولة لإدارة وتوجيه المصالح وصناعة أنماط سلوكية تستمد من اللغة، الدين، المقدس شرعيتها.

نحن أمام خطابات راسخة موجودة مستخدمة وليست خطابات عتيقة، تعبر عن علاقات القوة التي لا يمكن فصلها عن المعنى، الغاية منها تحويل الممارسات/الفعل إلى شرعية في وجه جماعات أخرى، محاولة إنتاج ذاتية للمعنى وتأسيس للاجتماعي، الذي يتأثر بالفعل التاريخي، حسب تعبير نور الدين الزاهي "هي تعبير عن رهانات إدارة، تدبير، ومراقبة للفعل يمارسها المجتمع على ذاته"[4] كل المحددات السابقة عبر عنها النص المؤسس للجماعة.

في بعض المتون نلاحظ قدرة الفاعل (المؤسس) على تحديد العلاقات الاجتماعية، هذا ناتج عن الموقع الذي يحتله المؤسس الأول والغاية منه محوا التمايزات والتحكم فيها من خلال صناعة العلامات والرموز والتعبير عن التحولات/الدينامية والتغيرات التي تتم وتمس بنية وشكل الجماعة الاجتماعية، يضاف إليها متون تشير إلى مصادر التهديد التي يمكن أن يواجهها البناء الاجتماعي (مثل قيم الآخر الغريب)، هي عبارة عن صورة ومعنى أنتجها المجتمع عن ذاته لكن الأفراد يرددونها يرون أنها تعبر عن المعاش الآني.

تعبر المتون اليوم على علاقات الصراع الاجتماعي الذي يختصر إلى مواجهة بين فاعلين متعارضين فاعل تاريخي وفاعل متنور على علاقة مباشرة بالنص الشرعي يرفض المقولات الشفهية، لكل منهما مقولاته عن "ذاته" وعن "الآخر" ووظيفة اللغة تحويل الممارسات إلى مشروعة في وجه جماعات أخرى (جدلية ترسيخ الشرعية من خلال اللغة). المجتمع ينتج رموز ويعبر عن ذاته من خلال مقولات، يحتل الفاعلون التاريخيون فيها إلى اليوم مكانة بارزة. تتميز هذه المقولات بالتراكم الارتباط بتصور محدد عن الكون ككل يحاول من خلالها الأفراد بناء معرفة ونماذج سلوكية/قيم الغاية منها هندسة الاتفاق الجمعي والمحافظة على ديمومة الحدث المؤسس (نلاحظ أن استدعاء المتن محاولة للرجوع إلى عصر ذهبي-رمزي) الغاية منها توجيه الأفعال وترميم الاجتماعي مثل نصوص ولد الوهراني التي تتوجه نحو المستقبل في صيغ استشرفية.

---

[1] هذه العبارة تلفظ بها في نظر المبحوثين سيدي خالد وهي تشير إلى أن السقوط عن الصخور العالية بمكان دفنه لن يتأذى منه أيشخص كما أن الأفاعي الموجودة بالمنطقة تخضع لنفس الاعتبار السباق.

[2] هذه العبارة واردة عن أحفاد سيد الشيخ وأتباعه وهي تحكي عن زمن المقاومة الشعبية بحيث أن هذا الولي لم يجد فرسانا لما قدم إلى منطقة معينة كنتيجة للاستنزاف المتواصل الذي تعرض له جيشه لهذا دعى الله وقدم ببركته وعدا لعامة الناس بأنهم سيصبحون فرسانا إلى الأبد لو حاربوا معه.

[3] مثلا القصيدة التي تتحدث عن الفيضانات التي تعرض لها المكان المسمى ب"مادنة" (منطقة بولاية تيارت) كنتيجة لعصيان الولي.

[4] نور الدين الزاهي المقدس والمجتمع، مرجع سابق، ص 20

المتون وتجليات المقدس:

تقدم المتون الواقع على أنه مُكَون من حلقات تتمركز حول الفاعل الاجتماعي –الولي المؤسس- وينتشر حوله الأحفاد/المريدون والأتباع وخاصة الذرية في دوائر ثانوية حول المركز ثم يأتي الآخر والغريب وفي الأخير الشخصيات الهامشية أو غير السوية، تعمل المتون على وصف الفضاء المركزي (المكان الذي عاش فيه الولي أو الذي دفن فيه) بأنه مقدس بعيد كل البعد عن الهامش وهذا يؤدي وظيفة الغاية منها الفصل بين الفضاءات وبناء ثنائية مقدس/مدنس، مع التركيز على أن هنالك مركز مكاني تتكثف فيه اللغة ودلالة القداسة، هذا التكثيف الذي يؤسس لتنظيم الفضاء دون أن يقصي الكاريزما التاريخية التي مكنت من تأصيل وإنتاج هذه الثنائية، كل هذا يتجلى في الفعل الجمعي الذي يحول كل شيء إلى انتظام رمزي، يغلف السلوكيات اليومية ويربطها بنسق دوري يتم تعزيزه من خلال ممارسات طقسية احتفالية (خارج اللغة نلاحظ وجود ممارسات مكملة مثل الزيارة، الوعدة، الجمع...الخ) ولغة ثابتة يتم ترديدها دوما، أي ربط الزمن اليومي_الروتيني بالزمن الديني_الحقيقي، أي النزوع والرجوع إلى لحظات التأسيس دوريا (هناك مماثلة بين ترديد المتن والاحتفاء الطقوسي بالمؤسس) نحن أمام وسيلة لتأصيل فكرة الولي المؤسس، فهي تتماهي مع النصوص "القرآنية" المؤسسة، (قصة إبراهيم الخليل وتعمير الأرض و تكرارها في جل المتون بشكل جزئي) إذ أنه من السهل إيجاد ترابط دلالي بين الممارسات وقصص التأسيس والقصص المكتوبة والتكثيف الدوري والتكرار. هناك تساند بين المتن والاستحضار للقصص والمناقب والطقوس والفضاء ومركز كل ذلك الولي كفاعل_كاريزما. كل شيء يعتمد على الإسناد (فالرجوع إلى الأصل الشريف الغاية منه استلهام القداسة) الغاية منه التأسيس للفرد والجماعة (التي تستمد قوتها من القصص-التاريخي) يتصل كل شيء بالمقدس ويكون التوجه نحو المستقبل، ويكون الانتساب دمويا-بيولوجيا (سلسلة تتصل بالقداسة غير مكتملة بل ممتدة في الزمن) الدلالة الرمزية للتأصيل كما هي في اللغة الشفوية هي طريق للاحتفاء بزمن التأسيس، تخدم وظيفة الاستمرارية للمقولات وللفاعلين وللوضعيات الاجتماعية ولثنائية المقدس/المدنس (حضور الشخوص في المتن موازي لحضورهم في الواقع).

الغايات من الاحتفاء بزمن التأسيس:

على الرغم من أن بعض التسميات لم تعد موجودة في قاموس السوسيولوجيا إلا أنها واقعية مثلا طبقة "الأجواد" تلاشت إلا أن الملاحظ بقائها في شكلها اللغوي/الرمزي ففي المناسبات الدورية التي تقام للاحتفاء بالجد المؤسس –الأول- نلاحظ استدعاء للممثلين عنها[1] على الرغم من أن هذا الفعل قد يبدوا فلكلوريا، لكن لا يمكن اعتباره عفوي الغرض منه تأثيث الفضاء فقط؛ إنه يحوي رمزية قوية وإيحاء بتجدد البناء الانقسامي القبلي، وحضور هذه الجماعة في الواقع موازي لحضورها في المتون على اختلافها.

أ/. التأسيس للذات:

في الميدان نلاحظ وجود قدرة على استخدام الرمز –الشفويات بالتحديد- في تقرير مسارات الفعل، ويعتبر الرمز معبرا عن الذات؛ يمكن اختزاله إلى معنى، يستخدم في لحظات التفاعل، فالقوالب اللغوية تحول الذات إلى موضوع وتعبر عن الفاعلين وإدراكهم وتأويلهم لأفكارهم، وهي تمكن من الحكم والتقييم على الآخرين والذات والبيئة ككل متجانس.

[1] الملاحظ في الوسط المحلي أنه قبل انطلاق أي شكل من أشكال الاحتفاء يتم الاجتماع بين مقدم العرش والفرق من الخيالة-الفرسان لإعطاء الانطلاقة "للوعدة" ولا يمكن الاحتفاء بالجد المؤسس بغياب أي طرف (المقدم-الفرسان) كأن القبيلة كلها تجتمع في فضاء التأسيس الأول بالقرب من الضريح لتعلن ولاءها في كل مرة دوريا لمؤسسها بطبيعة الحال تتكرر هذه الملاحظة مع أغلب المناسبات الاحتفائية في الوسط المحلي.

تساعد المتون على التعريف بالذات الفردية-الجماعية وبناء تصور لها وتؤسس للوعي وللعلاقة بين الأنا والآخرين، وتلعب اللغة المتداولة وبالأخص المتون على بناء/تشكيل نظام رمزي للجماعة بناء الاعتقاد والتصور لا يفصل في الغالب بين الأنا (الصورة الذاتية التي يحملها الأفراد عن أنفسهم) والشعور ب"النحن" فالعلاقات تعاقدية، الأفراد يقدمون أنفسهم على أساس الانحدار مباشرة من الجد المؤسس، نظام النسبة/الانتساب معبر عنه لغويا يعكس في الواقع الاجتماعي وتبدوا الجماعات الاجتماعية على أنها متجاورة ومنفصلة قائمة على أساس تحالفات يمكن إرجاعها إلى زمن التأسيس.

لم تفقد النظرية الإنقسامية من قوتها إذ الملاحظ في المجتمع المحلي تعالق المتون مع مبادئ ***الانقسامية*** والإلحاح على جملة من المبادئ كأحادية السلالة الالتحام، الانفصال والرابط الاجتماعي وفكرة الانتماء؛ على الرغم من عدم وجود تشابه ظاهر بين العناصر المكونة للمجتمع[1].

يقدم الاستخدام الاجتماعي للمتون الشفهية -على تنوعها- حقائق اجتماعية فهي لا تكف عن التعبير عن لحظات التأسيس الزمن الأول وتفصل بين "ما قبل" و"ما بعد"، كما أنها تعبر عن البناء الاجتماعي، السلالة-الذرية الانتماء وتقسم بذلك كل شيء إلى أجزاء (الفروع)؛ الولي والأحفاد، المجاورون، الآخر الغريب ثم تقسم الفضاء وتجعل منه مقدس/مدنس، بدايات جل المتون تتقارب لتشير إلى شخص لاجئ، غريب، مهاجر تنقل من مكان ثم لجأ إلى...، شخص هارب أو فار من السلطة المركزية توطن في المكان؛ أي المرور من مرحلة أولية وتجربة إلى مرحلة الاستقرار أو تجربة الاستيطان. هذا التقديم الذي يبدوا اعتياديا له وظيفة (الغاية منه الإشارة إلى تعمير الأرض وتحويلها من حالتها القاحلة/الموحشة إلى مكان للإقامة تحت رئاسة الجد-الولي).

المتون تبين وجود رابط دموي-وراثي وتبين نوع آخر من الوراثة الاجتماعية مثل: "انتقال السر من الشيخ إلى المريد الوارث يتم بطريقة تنقل بها الشرعية كما هي مكفولة بالانتقال من الأب إلى ابنه الوارث له..."[2] أي أننا على مستوى الحكي نلاحظ تجاوز مفهوم قوة منح الشرعية للسلالة الواحدة (تجاوز البيولوجي)؛ وإمكانية الانتقال إلى نوع آخر من التوريث_ الشرعية القائمة على ***التجربة العرفانية*** هذه الأخيرة يمكن اختزالها إلى تجربة اجتماعية يراد لها أن تعمم على الطائفة أو الجماعة التي تنحدر من المؤسس الأول.

تشترك المتون في الإحالة لعنصر ***التجربة العرفانية***[3] إذ أنها تمثل النجاح في العبور من الفعل المعتاد إلى الأفعال الأسطورية، فهي تعبر عن إنتاج المقدس على اعتبار أن المؤسس-الولي صاحب تجربة جديدة يحاول أن يقوم بتنوير الجماعات الاجتماعية. وهو ما يعبر عن قطيعة انتقال والعبور من وضعية إلى أخرى، تتحول سيرته إلى مرجع، فنجاح التجربة العرفانية ناتج عن قوة الفعل الذي قام به المؤسس الأول الذي ساعد على دمج الجماعات على اختلافها في بناء انقسامي (مكون أساس من أجزاء) على رأسه الولي يمثل أعلى قوة/سلطة.

---

[1] على الرغم من التغير معالم التنظيم الانقسامي وتغير الأنشطة الاقتصادية وأشكال الملكية وتغير العلاقات العائلية إلا الأفراد لا زالوا يحتفظون بالمتون التي تؤكد وجود تقسيم سلالي ويركزون على القرابة والقبيلة والهوية كل هذا عبارة عن إستراتيجية لتعزيز حقيقة اجتماعية ملموسة لغويا؛ لازالت قائمة على شكل شعور بالانتماء.

[2] ارنست غلنر الأنثربولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة الأحد السبتي و عبد اللطيف القفل، دار توبيقال للنشر المغرب، 1988، ص 45.

[3] في الوسط المحلي يشار إلى الجد المؤسس على أنه كان مريدا بسيطا يقوم بكل الأعباء المترتبة عليه لكنه بعد ما عرف "السر" لم يقم بالأفعال المعتادة لأنه ارتقى في المرتبة؛ (أصبح يطهو الطعام من الحرارة المنبعثة من أقدامه بدل الحطب) ثم طلب منه بعد ذلك اللجوء إلى مكان وتأسيس فضاء للعبادة؛ لا زال إلى اليوم معروف على أنه ضريحه وحوله مريدوه ونسله (أبنائه وأحفاده كلهم شكلوا قبيلة تعرف باسمه إلى اليوم)

الملاحظ هو تماسك القوالب اللغوية الشفوية في كل استخدام لدى كل الفئات التي تعتقد أنها من نسله وذريته، وفي كل استدعاء نلاحظ: ذكر المؤسس الأول والمرافقين له ثم ربطها بالذريات-السلالة كل هذا يخدم وظيفة محددة، إن تجربة الولي المؤسس تمر بلحظات استثنائية خاصة في مرحلة التحصيل العلمي والتحول من شخص عادي إلى فاعل اجتماعي وصاحب مشروع مجتمعي ومحاولته بناء مركز للنفوذ من خلال ربط وتأسيس وحدة للفروع الاجتماعية المتجزأة، هذا الاستهلال عبارة عن مرحلة تمهيدية تسبق النتيجة المحتومة (التدرج في المرحلية والارتقاء للوصول إلى درجة الولاية). فالأفراد يسعون لتوفير إطار زمني ومكاني للأحداث (أزمنة تصاعدية). من الصعب اليوم الرجوع إلى الحدث الأصلي والتأكد من صحته؛ لكن من الممكن تأويل الطابع الأسطوري خاصة أن الأحداث -الخارقة- تندرج ضمن سياق/مسار كرونولوجي محدد. هذا المسار هو طريق بناء الولاية والتحول من وضعية المريد "السالك" إلى وضعية "الولي" المؤسس المؤيد بالكرامات، يكلل كل هذا بالحصول على الكرامة والقدرة على منح البركة. القدرة على تلبية حاجات اجتماعية واقتصادية وبها أصبح الجد المؤسس كاريزما أي مؤسس للزعامة والرئاسة بفضل الطاعة وتتبع الأوامر وعدم إتيان المحرمات الاجتماعية. نجد أنفسنا اليوم أمام فاعلين غير موجودين تماما، عبارة عن شخوص تتضمنها النصوص المتواترة عنهم وعن مناقبهم تقوم بوظيفة تحديد الممنوع/المحرم وترسم حدودا معيارية للاجتماعي لم تفقد قوتها بعد.

تشير المتون إلى ***الطريقة***[1]؛ العقيدة والأخلاق والآداب العامة التي تختص بها الطائفة أو منهاجها تم وضعه من طرف الجد الأول المؤسس للسلالة أي أننا أمام سلوك مثالي فردي منهج أخلاقي_معياري "منهج نظري مثالي أو سلوك زهدي (رعاية/سلوك) تحدد طريقا لسفر النفس إلى "الله" تسلك خلاله منازل مختلفة وهي المقامات والأحوال وهي ذات معنى"[2] وهي اليوم بالنسبة للأحفاد؛ المريدين، المرددين والمتداولين لها مجموعة من القيم/الوصايا يجب إتباعها وهي تحتمل كلا من المعاني التالية معنى طريق (Voie, chemin) أو سلوك/مسلك فردي يقطعه السالك والمريد من خلال مراحل ومعنى طريقة (Méthode) تنظيم طائفي (Ordres confréries) أي مجموعة من القواعد والتعاليم التي تجمع بين المريد والشيخ[3].

ب/. التأسيس لقوة الكلمة للعلاقات والاجتماعي:

من خلال المعطيات الميدانية يتبين أن اللغة تحوي عدة مستويات لكل منها قوة خاصة مميزة لها، لها القدرة على العلاج، القدرة على خلق الألفة، القدرة على رأب الصدع الذي يشوب العلاقات الاجتماعية أو القدرة على التدمير، أما الأخرى فهي الكلام العادي –المستوى اللغوي العادي- أي الممارسات اللغوية العادية لكن في بعض الأحيان الكلمة المنجزة بإمكانها أن تؤثر لحظة التلفظ بها.

يعتبر أرنست كاسيير أن الكلام: "رباط أصلي بين الوعى اللغوي والوعي الأسطوري-الديني فجميع البنى اللفظية تبدو أيضا ككيانات أسطورية، أصبغت عليها قوى أسطورية معينة، والواقع أن الكلمة تصبح نوعا من القوة الأولية، التي يتولد فيها الوجود بأسره والفعل برمته...[4] ينطبق الأمر على القدرة القوية للكلمة التي يتلفظ بها الجد المؤسس في حق الأفراد والجماعات.

---

[1] يعرفها الباحث مراد الضويوي في كتابه أنثروبولوجيا الاسلام (مرجع سابق ص 222) بأنها من الطريق والسبيل أو المسلك الذي يسلكه الإنسان من القول المحمود أو المذموم ويقال الطريقة بمعنى السيرة والحال والمذهب.

[2] مراد الضويري أنثروبولوجيا الإسلام؛ التفكير السحري في الثقافة العربية الإسلامية في القرنين السابع والثامن الهجريين ابن عربي وابن خلدون نموذجا، دار سحر النشر تونس 2014؛ ص223.

[3] مراد الضويري أنثروبولوجيا الإسلام مرجع سابق ص224.

[4] ارنست كاسيير، اللغة و الأسطورة، ترجمة؛ سعيد الغانمي، هيئة التراث و الثقافة، الإمارات، 2009، ص88

"...إضفاء على الكلمة وظيفة وميزة دينية استثنائية ترفعها منذ البدء إلى العالم الديني عالم المقدس[1]." ارتباط الكلمة بالشخص المتلفظ بها (شريف، إمام، ولي الله أو أي شخص ذو مكانة عالية) يجعلها غير عادية، تعتبر –حسب الأفراد- متلفظ أبدى لا يزول مفعوله أبدا وله من القوة ما يمكنه من الثبات مهما تغير الوقت وتثبته الأحداث المعاشة.

مثلا..."**اللعنة**" تعتبر بكونها سببا قصديا للضرر...و هي تتخذ في الأغلب شكلا شفويا عدوانيا مباشرا...و تعتبر لعنة الآباء أخطر أشكال اللعنة وأقواها، إذ لا يعادلها مفعول ولا يبطله سوى رضاهم...قد ساهم في تدعيم سلطة الآباء على الأبناء."[2] وهو ما يتجسد في المتن التالي[3]:

فِي مْنَامْ رَبِي مَا تَعْرَفْ كِيفْ تْقِيسْ لَقْدَارْ و..م ن.. كِيمْيَة وأَنْتَ العَقَارْ
وْ ....رْجَالْ الله جَمْعُوا عْلِيهَا .... رْجَالْ الله كْبَارْ وصْغَارْ
وَ ... قَالُوا ذَالْعَامْ نْعِيدُوا عْلِيهَا ... مِيمَتْنَا نَاقَة مِيمَةْ حَوَارْ
وْ ... تَعْطَفْ اِلاَ عْلَى أَهْلْهَا .... عَوْدَة شَهْبَة نَفْحَتْ لَلْشُوفَاتْ
مْنِينْ رَبْحَتْ يَاكَجَاتْ العَيْنْ لِيهَا يَا الْحَاسِي لَخْضَرْ بْقَاوُا غِيرْ الطَّرَاتْ
كَانْ الْحَمَامْ يْكَبْ هْنَا وحَسْ خَوْدَاتْ ولْي خْذَاهَا وذَرْاهَا جَاتْ مَنْ الحِلِيَاتْ
شَاوْهُمْ فِي عَكَرْمَة وعْقَابْهُمْ فِي لِتَاتْ
جَابْهَا سَبْعْ رْعُودْ مَنْ الْحَالْ غِيرْ هَامَدْ ذَا عْلَى ذَاكْ يْدَقْدَقْ سَاعْتِينْ...
وَ خْلِيتْ دَارَكْ بْيَدَكْ وشَا سَوِيتْ فِيهَا
نْرِيحُوا فِي الضَّايَا نَذَبْحُوا شْوِيهَاتْ صَدْقَا عْلَى البَغْدَادِي وبُيْنَا لِي مَاتْ
نْرَيحُوا فِي الضَّايَا ونْصُونُوا الْعَوْدَاتْ
فِي وَعْدَتْ الْبَغْدَادِي ونْرَادْفُوا الْعَلْفَاتْ ...

الإشارة إلى زمن التفكك من خلال المشافهة؛ أو كما يقول رنست كاسيير: "...الكلمة لا تفنى وهي أول وليد للقانون الأبدي..."[4]تعمل الشفهيات على تعيين القيم، وتتميز بقوة الكلمة التي تساعد على البعث والتجديد والتحول، إن التأسيس لقوة الكلمة هو تأسيس لنظام اجتماعي ولسلطة ممتدة في الزمن/المكان.

أهم وظائف المتون الشفوية:

لا يمكن الإشارة إلى الوظائف التي تلعبها المتون دون الإشارة إلى أنها ناتجة عن فاعل متعالي تتماهي (وجود تناص) مع النصوص الأخرى معبرة عن الاجتماعي "..ذلك أن عالم النص يدخل بالضرورة في تصادم قوي بالعالم الحقيقي، لكي يعيد "صنعه" إما بأن يؤكده وإما بأن ينكره...[5] فالمنتج أو المتداول لها "يتطلع إلى بلوغ واقع خارج لساني، ... بتطلعه إلى قول الحقيقة...."[6]، فالولي محل تبجيل وهو المنتج الحقيقي للمتن ويعتبر المؤسس للفرقة، القبيلة وهو من يمتلك الفضاء هذا لأن"...ظاهرة تبجيل الأولياء التي تستند بالأساس للأدوار التحررية التي لعبها هؤلاء لفائدة الجماعات وحمايتها من كل المخاطر

[1] ارنست كاسيير، مرجع سبق ذكره، ص 89.
[2] عبد الغني منديب: الدين والمجتمع، دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، افريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب 2006. ص22.
[3] المتن يعبر عن دعاء لحق بالمحلي نتيجة دعاء أحد الصالحين و هو ما ألحق الضرر بفرقة تابعة للولي سيدي خالد تم حذف اسم المدينة و تعويضه بنقاط و بحروف(م ن).
[4] ارست كاسيير، مرجع سابق، ص93.
[5] بول ريكور من النص إلى الفعل أبحاث في التأويل، ترجمة محمد برادة و حسان بورقية، عين للدراسات، مصر، 2001، ص95.
[6] بول ريكور من النص إلى الفعل أبحاث في التأويل، مرجع سابق، ص17

الداخلية والخارجية التي تهددها...و كان من الطبيعي أن يصبح هؤلاء الأبطال والقادة محل تبجيل وتوقير من الناس أثناء حياتهم وحتى بعد مماتهم..."[1] ومن هنا تتجلى الوظيفة الأساسية.

أ/ وظيفة استمرارية المقدس: من خلال المحافظة على تجسيداته وتمظهراته؛ الملاحظ أن هناك ربط بين المقدس، المؤسس الأول والمكان، المتون حاملة للتصورات الاجتماعية غايتها خلق أيقونات في العالم الأرضي ترمز وتعبر عن المقدس مثل المؤسسون "فالأشياء لا تستمد قداستها إلا من كونها ذات علاقة معينة مع السماء...و من هنا وجود بعض الأماكن التي تحمل نفحات قدسية كالأضرحة وبعض الأحجار والأشجار..."[2] كل الموضوعات السابقة لا تكتسب قيمة إلا بعلاقتها بالفاعل الديني الموجود في جل المتون.

ب/ المحافظة على وحدة المعتقدات: مثلا الكرامة تعتبر "من منظور أصحابها قصة حقيقية تروي حكاية مقدسة وتخبر عن حدث تم في زمن موغل في القدم زمن البداية... وبعبارة أخرى فالكرامة مثل الأسطورة تروي كيف وجد بفضل كائنات/فاعل واقع معين إنها تروي كيف يتجلى المقدس ويعلن عن نفسه في الواقع؛"[3] فالوظيفة الأساسية هنا إضفاء معنى ودلالة على العالم الموجود. وهي ترتبط ب**"البركة"** أي قوة منح الفعل وتأثيره في الأشياء في العالم الاجتماعي، كل الأفعال والسلوكيات تحتاج إلى المباركة.

ج/ وظيفة المحافظ على التكامل: إن الحكي عن زمن التأسيس، التقديم للولي، الوصف للذرية والسلالة، التسميات والتعايش، العناصر السحرية والفعل الأسطوري، وصف العلاقات الاجتماعية (المشبعة بالعنف الرمزي)، الاستشراف والتوجه نحو المستقبل (أي أن المتون كما أريد لها تعبر عن مقولات صادقة في كل زمن) له غاية مركزية هي المحافظة على تكامل الجماعة.

د/ المحافظة على التنظيم الاجتماعي: إستراتجية التحقير التجزيء والاستبعاد من الحكي الغاية منها ترسيم وإعادة بناء للتنظيم الاجتماعي على مستوى الحكي والواقع معا؛ فالتركيز له دلالة وهو يحيل إلى ما ترسب في المخيلة الشعبية التي ترى في الآخر مصدر تهديد. تحمل الكثير من الأماكن أسماء لأولياء وهذا للتدليل على حيازة الفضاء/المجال. ومسألة الانتقال والتوريث للكرامة والبركة يجعلنا أمام محاولة لنمذجة السلوكيات وتنميطها. أي أننا أمام تجربة شخصية شاقة تستند إلى واقع اجتماعي معروف تكلل في النهاية بإنجازات خارقة. كل هذا ينتج معنى، مثلا: مسألة العقود والمواثيق بين الصلحاء والجماعات الاجتماعية تتم وفق مبدأ الشرط وأي خروج عنه أو خرقه يعتبر تهديدا للبناء الاجتماعي ككل.

و/ المحافظة على التمثلات والتصورات:

الاستخدام للمتون هو عبارة عن نشاط رمزي استبدالي إذ أنه وعلى الرغم من أن الشفويات ترتبط من جهة بالواقعي ومن جهة أخرى بالمتخيل فهي تتميز بالقوة الرمزية والارتباط بالسلطة، فهي تعبر عن رؤية للعالم معترف بها "إن ما يعطي للكلمات قوتها وما يجعلها قادرة على حفظ النظام أو خرقه، هو الإيمان بمشروعية الكلمات ومن ينطق بها، وهو إيمان ليس في إمكان الكلمات أن تنتجه وتولده"[4]؛ بها بل أكثر من ذلك هي مقولات تحدد العلاقة بين من يمارس السلطة ومن يخضع لها، هناك مجال للتوزيع – اللغوي- مستقل نسبيا- إذ نلاحظ وجود منتجين ومتداولين لقصص الكرامة.

---

[1] عبد الغني منديب: مرجع سابق ص34.
[2] عبد الغني منديب مرجع سابق ص45-46.
[3] مراد الضويوي أنثروبولوجيا الإسلام، مرجع سابق، ص 252-253.
[4] بير بورديو: ترجمة عبد السلام بن عبد علي، السلطة والرمز، دار توبيقال، الدار البيضاء-المغرب 1986، ص58-60.

تقسيم وتخصيص الشأن الديني على علاقة بتقسيم البناء الاجتماعي ككل فهو يسلب من الآخرين (الذين لا ينتمون للجماعة الأصلية) قوة إنتاج الكلمات والرموز بل يؤثر على مقدار الوجاهة الممنوحة للأفراد في الترسيمة الاجتماعية الانقسامية، تبين المتون القائمين على إدارة الدين والممارسات الطقوسية، وتفرض الالتزام بهذا التقسيم، بهذا تجعل من كل فرد قريب من الأصل (أي على علاقة مباشرة مع الجد المؤسس) يكرر المتون الشفهية المناقبية التي تتحدث عن المؤسس الأول وعن إدارة الديني وهندسة الاتفاق الجمعي، هذا النشاط العملي المحافظ عبارة عن إعادة إنتاج رمزي واعي يخدم وظيفة على علاقة. خاصة أن الأفراد يرون فيها على أنها ملك لكل الجماعة معبرة عن خصوصياتها وامتيازاتها ودليل على المكانة والدور.

تداول المتون هو إنتاج لمعنى مشترك ولصيغ اصطلاحية ومواضعة اجتماعية حول الواقع-الاجتماعي، الملاحظ وجود متون وثيقة الصلة بالراهن تم إنتاجها في مراحل تاريخية غير معروفة إلا أنها تتميز بالحضور الدائم على علاقة بالسلوكيات والأفعال في الوسط المحلي، لم تتأثر بالأزمنة المتعاقبة وبالتغيرات الجذرية التي مست البناء الاجتماعي الكلي، تتجلى المتون الشفهية وكأنها أنتجت هنا-الآن ومن الصعب تجاوزها ومن الصعب الحديث عن الأداء الكلامي فقط دون الحديث عن الحدث المؤسس وعلاقته بالوضع الراهن.

تشير المتون إلى جل التحالفات الممكنة والموجودة التي تم التعاقد والاتفاق حولها تتساند المتون الأولى مع متون أخرى تختلف معها في الشكل لكنها تعبر عن لحظات أخرى لا تشبه لحظات التأسيس وهي ذات وظيفة مساندة للأولى تبين قوة الفعل التي يتميز بها الجد المؤسس.

ه/ وظيفة المحافظة على القيم:

انطلاقا من الملاحظات الميدانية ندرك وجود علاقة بين المتون، القيم والسلوك فالأفراد يعتقدون بوجود "قوة ايحائية للكلمة"[1] تعمل كقوة أسطورية على جلب نفع أو دفع شر. أي أننا أمام مقولات تعبر عن التجربة الشخصية للمؤسس الأول يتم تعميمها لتتحول إلى تجربة اجتماعية بحيث يتم شحن المتون بقيم (بانفعالات وعواطف) تحاول الفئات الاجتماعية ككل دعم المتن بوقائع تاريخية قيمية؛ قابلة للتداول؛ لا تؤخذ بالاعتبار ما تعنيه مباشرة لأنها متعالية على العقل ومستعصية على الفهم يتم الأخذ بها فقط والتسليم بها مما يولد نوع من السلم القيمي الذي لا يقبل النقاش والجدال يفرض نفسه كتفسير وكواقع ماضي-حاضر معبر عن الأفراد الجماعات المتداولة للنصوص الشفهية (الشفهية تعمم القيم). لا يكترث الفاعلون بواقعية الأحداث في الشفهي بل يعتبرونها كواقع مسلم به حدث فعلا صادق إلى أبعد الحدود.

على الرغم من أن المادة المتوافرة تبين وتشير إلى قوى/سلطة استثنائية فاعلة يمكن أن توهب للأفراد العاديين؛ تمكنهم من بلوغ مراتب معينة لتغيير الأحداث والوقائع وهي تبين وجود قوى أسطورية موروثة (تجسدها انتقال "السر" أو "الحكمة" من الصلحاء إلى لمريدين الذين يصبحون ***"صُلَحَاءْ"*** ذوي مراتب لا يستهان بها)، على الرغم من أنها تعبر عن أمور خارجة عن الدنيوي المألوف والاعتيادي؛ على الرغم من الاعتبارات السابقة نحن أمام لغة/فعل المشافهة وواقع سحري يزاوج بين تصور لغوي وتصور

[1] في الميدان المدروس نجد قصة تجسد القوة الإيحائية للكلمة، (كان على بن أبي طالب يرغب في الصيد لكنه عجز عن اللحاق بغزال حتى أخبر بأنه يجب أن يتلفظ بالعبارة التالية "قادر، قادر يا مولا عبد القادر" فأمسكها وعندئذ تحدث معه الغزال وقال له لم ولن تتمكن من اصطيادي لولا هذه الكلمة ولما سأل على بن أبي طالب عن هذا الاسم أخبر بأنه عبد القادر الجيلاني وأخبر عن علمه..)

أسطوري يخلق وعي معين يربط الذوات الاجتماعية بالذوات الأسطورية ويعيد إنتاج القيم الدينية، يؤمن بها الأفراد الذين يتداولون المتون الشفهية؛ فهي غنية بالقيم (قيم الزهد، التعفف، رفض الملذات العابرة...الخ).

الشفهية هي تحويل تجربة معرفية انفعالية إلى صوت متداول تقدم نظرة للواقع حتى وإن كانت سحرية، تحيل المتون إلى وسط ليس غريبا عن التجربة الفردية والجمعية، بل ليس منفصل عنها تماما؛ فهي تنقل انطباعات عن عالم اعتيادي اليومي وعلاقته بالمدنس، يرتقي به المؤسس الأول إلى مستوى "المقدس" أي إلى عالم الدلالة/المثالية عالم القيم.

فمن خلال التماهي مع القيم المنقولة عن الجد المؤسس يمتلك الأفراد العضوية في الجماعة ويحصلون على اسم، أصل، مكانة ودور وتوكل لهم وظائف وبها يتحولون إلى أفرد فاعلين، أي إعادة ميلادهم-التعريف بهم كأعضاء حاملين لقيم المؤسس الأول لذا يجب أن تتجسد القيم في سلوكهم العام والخاص، وبهذا يكتسبون صفة الحضور والفاعلية داخل الجماعة الاجتماعية-الدينية.

نلاحظ وجود نزوع نحو تقديس الأشخاص –الفاعلين- الذين يتميزون بالصلاح والورع، والتبرك بهم كممارسة متجذرة يتعذر تجاوزها في أي نشاط لغوي مثلا في نظام النسبة نلاحظ إضافة اسم الولي المؤسس إلى الأسماء الآن لبناء قائمة طويلة تنتهي إلى الأصل تهيمن على المحلي وتعطيه معنى. هذا نوع من التجلي الديني (التبجيل)، هو تأسيس لوضع اعتباري متميز للولي وللسلالة، اعتبار سلطته مطلقة على المجال (المجال الحيوي المسكون وغير المسكون) تزود الأفراد بإشارات يستطيعون من خلالها بناء هوية مفارقة للآخر، (فئة اجتماعية مستقلة) هوية مركزية ترأس الاتحادات والقبائل والتشكيلات الاجتماعية الأخرى (سلطة تيوقراطية) "من خصائص الصلحاء أنهم محليين حيث نجد الصالح المحلي الذي يمارس نفوذه على "المحلي" على قرية واحدة وهناك من يمتد بتأثيره على القبيلة كلها أو إلى قبائل متعددة، بيد أن هذا التأثير يكون دائما محدودا إن لهم قدرة مجالية (Territoriale)"[1]

"وضع الصلحاء في أعلى مرتبة، إذ تسعى كل قبيلته إلى أن تجعله فوق كل الصلحاء الآخرين بما في ذلك ولي الأولياء والقطب عبد القادر الجيلاني"[2] مثل قصة المراكشي الواردة في قصيدة الشاعر محمد بلخير أو القصص التي تعبر عن لقاء هذا الأخير بالولي المؤسس للطريقة الشيخية كل هذا من أجل تقليص المسافات و تمكينه من الحج لهذا اعترفت الزوايا في "فاس" بقوته وحصل على المكانة الاجتماعية كفاعل قوي في كامل الصحراء و خارجها.

بالإضافة إلى الفاعل المركزي نلاحظ أن هناك فاعل ثانوي يعتبر كمصدر لجل المتون الشفهية، هو **"المقدم"** الذي يعتبر خادما للولي والملازم له "ينظف زاويته أو مغارته، بل ويبعث الحماسة في الأتباع، عند الضرورة، وعندما يتوفى الصالح يصبح المقدم الحارس القيم على الضريح ويتوارث هذه المهمة أبا عن جد."[3] فهو الناطق باسم الجماعة الاجتماعية يحفظ متونها التي تعبر عن التأسيس والخصوصية الدينية والانتماء إلى الجد (الانتماء يحفظ من خلال نظام النسبة) بهذا يتم الربط بين المتون والواجبات -السلوك المنتظم- مثل الزيارة التي تعني الميل والاتجاه، الملاحظ وجود إشارات إلى **"المرابط"**؛ الشخص ينقطع لحماية عن الآخرين وينظم لحامية يتم فيها ممارسة التقوى والورع؛ الرباطات مواضع للعزلة والتعبد وتحول الرباط إلى مؤسسة دينية بعد زوال الخطر الخارجي، والتحول إلى مصلحين دعاة محليين. المتون

[1] إدموند دوتي، ترجمة محمد ناجي بن عمر، الصلحاء؛ مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2014، ص37.
[2] ادموند دوتي، الصلحاء، ص39
[3] إدموند دوتي، الصلحاء، ص 41.

لا تفصل بين الديني والسياسي القصص تتحدث عن التحول من الدور العسكري إلى الدور الديني ثم السياسي، أما الولي الذي يعنى القريب من الله؛ كثير الطاعات أي الملتزم بالتعاليم الدينية، محل تقدير (حتى ولو كانوا بدون شجرة نسب)، هم سادة البلاد وهم من يحميها من الخطر، (مول لبلاد، رجال البلاد) تتبعه طائفة وسلالة، يجب على أبناء الصالح إتباعه والمحافظة على "الشرف" لكي لا يفقدوا البركة فتنتقل "تخرج من بين أيديهم"، مثل القصة التالية التي رواها مقدم أحد الزوايا: أمر الشيخ طالبه بأن يجلب له شيء ما ولما عاد تأكد أنه وصل إلى المرتبة المنشودة، وتأكد له الأمر لما رآه يقوم بوضع أرجله محل الحطب و بعد أن أتم واجبه أمره بتأسيس طريقته الخاصة شرط أن يسرع؛ وأرسل في إثره أبناءه وبعضا من مريديه وأمرهم أن يدعوه يذهب إن لم يتجاوز مكان قد حدده لهم؛ وكان للطالب المجد (للولي المؤسس) أن سبقهم وتجاوزهم، لهذا يسمى إلى اليوم "بَطْوِيلْ السَاقْ" لا زالت هذه الحكاية موجودة إلى اليوم و لا زال هذا الاسم موجود و لا زالت تؤدي وظيفة و دور في الوسط المحلي.

يعتبر المتن الشفهي إطار مرجعي للأفراد وللجماعات في الوسط المحلي، يقبل التناول/التأويل الأنثربولوجي لأنه يندرج ضمن الوقائع السوسيوتاريخية يوفر لمتداوليه مقولات عن الهوية، السلطة، وطبيعة الرباط الاجتماعي، كما أنه يؤدي وظائف متعددة تخدم استمرارية ووحدة التجربة الجمعية، كما أن ترديده يعتبر كممارسة راسخة يسعى الأفراد من خلالها إلى إحياء الماضي والرجوع للأصل.

قائمة المراجع و المصادر:

- بول ريكور من النص إلى الفعل أبحاث في التأويل، ترجمة محمد برادة، حسان بورقية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، مصر، 2001.
- إدموند دوتي، ترجمة محمد ناجي بن عمر، الصلحاء؛ مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2014.
- ارنست غلنر الأنثربولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي، و عبد اللطيف القفل، دار توبيقال للنشر، المغرب، 1988.
- ارنست كاسيير، اللغة و الأسطورة؛ ترجمة سعيد الغانمي، هيئة للتراث و الثقافة، الإمارات، 2009.
- بير بورديو: ترجمة عبد السلام بن عبد علي، السلطة والرمز، دار توبيقال، الدار البيضاء-المغرب 1986.
- الغني منديب: الدين والمجتمع، دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، افريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب 2006.
- مراد الضويري أنثروبولوجيا الإسلام؛ التفكير السحري في الثقافة العربية الإسلامية في القرنين السابع والثامن الهجريين ابن عربي وابن خلدون نموذجا، دار سحر النشر تونس 2014؛ ص223.
- الدين طوالبي: الدين والطقوس والتغيرات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، منشورات عويدات بيروت، 1988.
- نور الدين الزاهي: المقدس والمجتمع، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2011.
- فاني كولونا: آيات الصمود؛ الثوابت و المتغيرات الدينية في الجزائر المعاصر، ترجمة لطيف فرح، دار العالم الثالث، دون سنة نشر.
- فاطمة ديلمي: صورة اليهودي في الحكاية القبائلية، القصص والتاريخ التمثيل الرمزي لحقب من التاريخ الاجتماعي الجزائري، من أعمال مركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الإنسان والتاريخ العدد الثاني، 2005.